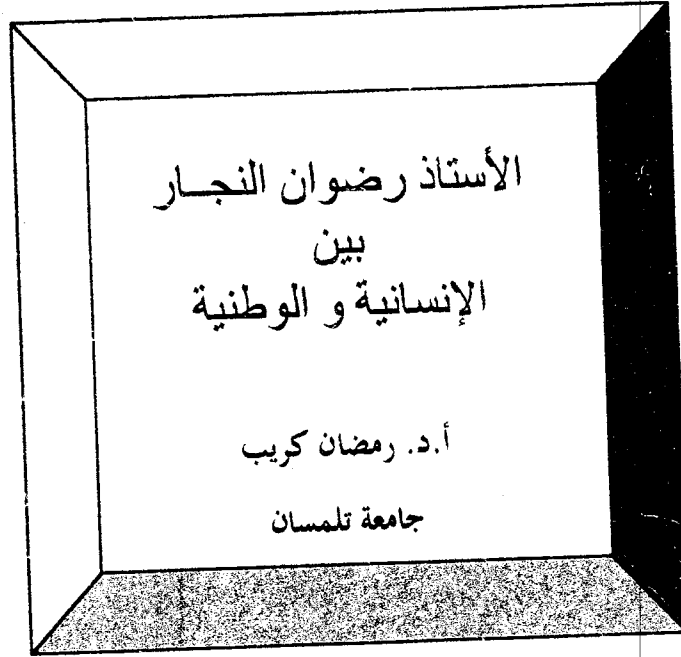




بسم الله الرحمن الرحيم

و الصلاة و السلام على أشرف المرسلين.

أبدأ كلمتي بتوجيه عميق شكري إلى المشرفين على تنظيم هذه الندوة
التكريمية للأستاذ الكريم الذي قضى شبابه و فتوته يكافح و ينافح من أجل
تثبيت الرؤية العربية هنا و هناك، و مهما يكن فإن هذه الندوة تُعتبر لحظة
وفاء إيجابية منكم أيها السادة.

آيها الإخوة الكرام :

لقد ربطتني في السنين الأخيرة صداقة متينة بالأستاذ، و إنني أعترفُ
شاكرًا إذ له الفضلُ بأنني قضيتُ بصُحبته أياماً مُمتعةً؛ إن هذه الصَّحبة قد
سمحتُ لي بمعرفته عن قُرب، لقد عرفتُ عَناءَهُ و جُهدَهُ، و هو يجاهدُ من أجل
إعطاء اللُّغة العربيَّة مكانتها اللائقة في هذا البلد العزيز، لقد كان دفاعُهُ عن اللُّغة
العربيَّة و علُومها من القيم الجميلة الّتي عشقها أستاذي، و عاش لها، و تغنى بها،
و ظلّ ثابتاً على ذلك إلى اليوم.

لقد عرضتُ على حضرتكم بأمانة و إخلاص و صدق و دقة، ما وجدته
في أستاذي الفاضل، فإنّ ما سوّده الأستاذ من صفحات كثيرة ستبقى مُضيئةً
في وجه الثَّقافة العربيَّة عامّة، و في جامعة أبي بكر بلقايد بتلمسان خاصّة .
إنّ موضوعَ العُرُوض موضوعٌ علميٌّ موسيقيٌّ شائك، و دقيق، و لقد
تعلمنا عنه هذا العلم، وسعدنا بذلك أيّما سعادة، و إنّ ما سوّده في هذا
الموضوع لخير شاهد على أنّه عمل على تذليل صعوبات هذه المادّة الّتي تكادُ
تكون مُجرّدة.

و من خلال تدريسه لهذه المادّة امتاز الأستاذ بالنظام، و النظافة والدقة
في العمل و المحافظة على المواعيد و الصدق في القول، و كل هذه الصفات
الحميدة صفاتٌ إسلامية بحق.

قد تقولون إن هذه الأفكار تُعد من البديهيات، و هذا حق، و لكن الحق أيضا أن الغالب على الناس أنهم يفهمون الأمور على ما يتهيأ لهم في نفوسهم بحسب استعدادهم الفطري، و تثقيفهم المكتسب لا على ما هي عليه الأمور، لهذا أودُّ أن أوضّح تماماً ما أعنيه، حتّى لا يُساء فهمي، و إني متيقن منذ البداية من تسامحكم مع ما قد يجده البعض من مبالغة.

أيها السّادة:

إنّ الحياة ملأى بالضرورات، و الضرورات تُنزل الإنسان على حكمها، و قد قيل الضرورات تُبيح المحظورات، و من الحكمة أنّه كلّما حدثت ضرورة تُضيق على صاحبها، فتلزمه أن يقوم بما هو مرغّم عليه، و عندي أنّ هناك عدّة أمور و ظروف أسهمت في صناعة حياة أستاذي الأستاذ النجار، يجب ذكرها و المرور بها، ولا ننسى أنّ هناك جروحاً غائرة في وجدان كلّ فلسطيني، جرّاء تشرّده من قبل الصّهاينة، و من المعلوم أنّ الحرب تحطّم نفسيّة الإنسان، و كثيراً ما تغرس شقاءً نفسياً، قلّما يزول و تظلّ النفس منطوية على سرّها و غصّتها طيلة حياتها. إذن لا بدّ من تجاوز النظرة القاصرة الّتي لا تنفذ إلى جوهر الأشياء، و تصوير الحقائق. أقول هذا لأنّ مأساة الإنسان الفلسطيني ظلّت بادية على وجه أستاذي، فرغم وجوده بيننا كأخ كريم، و أستاذ جليل، ظلّ يعيش غربة قاسية، و فرعاً ظلّ يُداريه بأساليب مختلفة، كما كان يواجه الحياة بطرق متباينة بالوهم و الحقيقة، بالتوتر و السّلاح، بالقوّة و الضّعف؛ ففي كثير من الأحيان يبدو لك

في صورة الخائف، حين يتأمل نفسه، و يجد نفسه مفصّولاً، ليقف موقفاً لا يكاد يستبين الكثير منه، و لكن سرعان ما يغلبه الطبع، فتظهر الشجاعة و الثبات، و الأنسُ معاً، و بلغة ثانية كثيراً ما رأيتُ أستاذي يقفُ موقفاً يزدوجُ فيه الحربُ و المواجهة، و المغالبة تقتضي نوعاً من الصراع بين الإنسان و ما يُواجهه، و الحق أن المواجهة لا تقتصر على مواجهة الآخر، بل الأهم هو مواجهة الذات.

و إذا سمحتم لي بتفصيل القول في هذه الرؤية، قلتُ: إن الإنسان كائنٌ قلق الحسّ، يبحثُ دائماً عن ملجأ يأتمنُ إليه، و على العموم فإنَّ الوجود الإنساني مرافقٌ دائماً بالجزع و الضيق النفسي، و لعلني لا أجنبُ الصواب إذا قلتُ: إنَّ المثقف العربيَّ أوّلَى بهذه الحالة، و أستاذنا على رأسهم.

أيها السّادة:

إنَّ ردود الفعل تميّزُ دائماً بالمبالغة و التضخيم، أقول هذا لأنَّ للأستاذ الكريم مواقفَ انفعالية، أو ردود أفعال قويّة، غير أنّها بريئة، سرعان ما تتلاشى، إنَّ الأستاذ الفاضلَ رجُلٌ حازمٌ يقسو أحياناً على طلبته ليزدجروا، و ما أحوجتنا اليومَ إلى الحزم و الانضباط، لقد عزّ هذا في وقتنا الحاضر.

و إنَّ المتأملَ يجدُ أنَّ غضبات الأستاذ أحسنُ موقعاً من الملائنة المبطّنة بالمكر و الخديعة، و إنَّ هذه الغضبات كثيراً ما تكونُ بدافع التّفّع و الرّدع، و تقويم الأعوجاج، و بتعبير آخر هي من باب الاعتزاز بفرديّة الإنسان، و معلومٌ أنَّ من أسباب العزّة إتقان العمل، و أستاذي يُتقن عمله أيّما إتقان،

ولذلك كانت تعتريه جدية إذا لاحظ من أحد تقصيراً أو سخافة، ولكن هذه الجدية كانت له مصدر قوة، فكان يثور لما يعتقد أنه الحق، و ينفعل أشد الانفعال إذا لاحظ خطأ في السلوكات و المواقف؛ وخاصة عندما يرى البعض يريد أن يحقق الغايات و النجاح و التفوق بالحيلة، و الحُبث و العراك، و لا يبذل ما يجب من جهد علمي و توضحية، ثم إن هذه الجدية هي التي أضفت عليه من الهيبة و الوقار الشيء الكثير، و هو مع كل هذه طيب القلب سليم الصدر، عزيز النفس، متواضع بينه و بين الله.

و إن أُمِيزَ شيء في أستاذي شجاعته الأدبية، و لقد سببت له هذه الشجاعة و الصراحة المتاعب، والعناء الكثير، فكم أتهم، و كم سب، و كم دُسَّ له، و لقد احتمل كل ذلك في صبر و ثبات، علماً منه أن المقدمة لا بُدَّ أن تتبعها نتيجة من جنسها و نوعها. و لقد كان الأستاذ يقف صراحة برأس عال، وصوت جهور ضد سياسة الفرئسة، فسيبقى لك أستاذي هذا الموقف التاريخي مُسجلاً في ذاكرة العارفين، وعموماً فإن مواقفه المبدئية طبعها الجرأة و الجسارة التي لا احتياط فيها، فقد ظلّ طيلة وجوده معنا يُدافع عن العربية و العروبة، بشكل لم نعهده في أغلب الإخوان، حقاً لقد كان من الرجال الذين لا يتناقضون مع ما في نفوسهم، بل كان من الذين لا تطيب لهم السكنى إلا داخل أنفسهم.

أيها السادة:

إنَّ الكرمَ ظاهرةٌ مألوفةٌ عند العرب و محبوبةٌ شرعاً و عقلاً و عادةً. لا شكَّ أنَّ الجميعَ يُقرُّ بطغيان المادَّة التي تشبَّث بها الكثيرُ و حاربَ و قاتلَ من أجلها البعضُ.

و قد ظلَّ أستاذي الكريم يُجسِّدُ معاني الكرم و الوفاء و الشهامة، و المروءة. نعم إنَّ من أخلاق أستاذي التي تلفتُ انتباهَ الأغبياء و السذج فضلاً عن التَّاهمين، و الفاضلين، ما سَمَّاه العربُ خُلُقَ السَّيادة، و هو الكرم. فالأستاذ بهذا الخُلُق يُعدُّ من أسيِّد النَّاس. فهو لا يتوانى عن بذل العطاء للنَّاس و قضاء حوائجهم، و استحلاب رضاهم، و هذا ما سَمَّاه العربُ اصطِناعَ الرِّجال، و من هنا كان دائماً له أثْباعٌ و أشْياع؛ لقد كانت له مواقفٌ في مُؤازرة الكثير لا يُنكرُها إلا مُكابِرٌ أو جاحد، و عند العرب أنَّ العَمَل الحميدَ تابعٌ للأصل الشَّريف.

أيها السادة:

اسمِّحوا لي أن أُسجِّلَ هنا ما يلي: إنَّ المُوفِّقين لعمل الخير قلَّما يسلمون من حبِّ المدح و الثَّناء. و الطَّبيعةُ البشريَّةُ أضعفُ من أن تُقبِلَ على الخير المطلق. فكلُّ مُحسنٍ يُحبُّ أن يُذكرَ إحسانُهُ بالجميل مهما أخلَصَ لله، و على النَّاس أن تفهمَ ذلك، و أن لا تفضنَّ على المُحسنين بمظاهر التَّبجيل، فإنَّه لا شيءَ أقتل

لِنَوَازِعِ الْخَيْرِ فِي نَفُوسِ الْكُرَمَاءِ مِنْ نُكْرَانِ الصَّنِيعِ. إِنَّ لِلْأَسْتَاذِ فَضْلاً وَ كَرَمًا وَ حُرْمَةً، يَجِبُ أَنْ تُذَكَّرَ. إِنَّ تَرْكَ الْإِنْصَافِ يَدْعُو إِلَى التَّقَاطُعِ.
أَيُّهَا الْكُرَمَاءُ:

لَقَدْ تَعَلَّمْتُ مِنْ أَسْتَاذِي الْفَاضِلِ مُحَمَّدَةَ مَا زِلْتُ مُسْرُورًا بِهَا. ذَلِكَ أَنِّي كُنْتُ أَسْمَعُهُ طِيلَةَ مَصَاحِبِي لَهُ. يَقُولُ بِصَوْتِ عَالٍ مُصْحُوبًا بِتَهْنِئَةٍ (يَا اللَّهُ) بِلَهْجَةِ الْمَلْهُوفِ الْمُسَوِّلِ الْخَاضِعِ الْعَارِفِ لِقَدْرِ رَبِّهِ، وَ حِكْمَتِهِ، وَ الْوَائِقِ بِاسْتِجَابَتِهِ. وَ لَاحِظْتُ أَنَّ الْأَسْتَاذَ بَعْدَ هَذِهِ الْاسْتِغَاثَةِ بِالْعَلِيِّ الْقَدِيرِ يَرْتَاحُ وَ يَطْمَئِنُّ، وَ يَسْتَعِيدُ أَثْفَاسَهُ، هَكَذَا سَرْتُ مِنَ الْمُقَلِّدِينَ إِلَى أَنْ أَصْبَحْتُ لِي عَادَةً، وَ يَا لَهَا مِنْ عَادَةٍ، فَشُكْرًا لَكَ أَسْتَاذِي.

نَعَمْ كَانَ أَسْتَاذِي دَائِمَ السَّوَالِ لِلَّهِ، مُتَضَعِّعًا أَمَامَهُ، يَتَّصِلُ بِهِ، يُنَاجِيهِ، وَ يَفْرِضُ ذَلِكَ عَلَى الْجَمِيعِ، فِي خَتَامِ كُلِّ وَلِيمَةٍ وَ لِقَاءٍ.

فِيَا أَسْتَاذِي، سَيَظَلُّ اسْمُكَ مَقْرُونًا بِالْعَرُوضِ فِي نَفُوسِ طَلِبَتِكَ الَّذِينَ صَارَ جُلُثُهُمُ الْيَوْمَ أَسَاتِذَةً مُدْرَسِينَ بِجَامِعَاتِ الْوَطَنِ وَ مَعَاهِدِهِ، وَ سَيَقِي كَرَمُكَ وَ حُرْمَتُكَ دَيْنًا فِي أَغْنَاقِ الْكُرَمَاءِ الشَّاكِرِينَ لِلَّهِ، وَلِلنَّاسِ، وَ مَنْ لَمْ يَشْكُرِ النَّاسَ لَمْ يَشْكُرِ اللَّهَ. وَ اللَّهُ جَلَّ شَأْنُهُ يَقُولُ: " وَ لَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ".

نعم أيها الإخوة لقد كتبت ما كتبت متأثراً برعاية العهد، و حفظ الجميل،
لقد ربطتني بأستاذي في السنين الأخيرة وشائج مودة، و أواصر معروف،
الأمر الذي جعلني أشعر بأن بين كرام الناس من روابط الإنسانية ما يسمو
بالنفس، و يُباعد بينها و بين الوحشية و الحيوانية و حقارتها.

